القسم الثالث

خاتمة: الرد على التحديات الحديثة

الفصل الخامس عشر

الشاب المسلم والرد الإسلامي على العالم الحديث

لا حاجة إلى القول بأن الشاب المسلم الذي يواجه الحضارة الغربية يستطيع الردّ عليها بأساليب متعددة، مستندة إلى خلفيته وتعليمه وتنشئته العائلية وتكوينه النفسي والعاطفي وقدراته الفكرية. ولا نهدف هنا، في هذا الفصل الأخير من هذا الكتاب، إلى إجمال الفحوى المحتملة لجميع هذه الردود، بل تقديم ما يمكن أن يكون فحوى رد إسلامي، نيابة عن الشاب المسلم الذي يود البقاء ضمن حدود الكون الإسلامي العام، على التحدّيات التي تطرحها الحداثة كما أوردناها في القسم الأول من هذا الكتاب. ويقع هذا الرد ضمن مجالات عديدة متنوعة، ولذلك سنعالجه في أربعة أجزاء. يتعامل الجزء الأول منها مع النواحي الدينية والروحية والفكرية، والجزء الثاني مع النواحي الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، والجزء الثالث مع النواحي الفنّيّة، والجزء الرابع مع أسلوب الحياة المقترن بالعالم الحديث.

١ـ يتألف جوهر الردّ الإسلامي على العالم الحديث بطبيعة الحال من المظاهر الدينية والروحية والفكرية للحياة الإنسانية. وهذه المظاهر هي التي تحدد كيف يتصرف الإنسان، وكيف ينظر إلى العالم من حوله. ولنبدأ من الدين ذاته، فنقول: إن أهم ردّ يمكن أن يأتي، وأهم خطوة ينبغي أن يتخذها شابّ مسلم ذَكَراً كان أم أنثى، هي الحفاظ قبل كل شيء على متانة عقيدته، وعدم فقدان الثقة بسلامة

الوحي الإسلامي وصدقه. ويعمل العالم الحديث على إحداث تآكل وتدمير لكل ما هو مقدس وديني في وسطه، ويقف موقف المعارضة بصورة خاصة ضد الإسلام كدين رفض التخلي عن نظرته المقدسة إلى الحياة وإلى الشريعة الإلهية التي تشمل كل نشاط إنساني. وقد دأب معظم المستشرقين الغربيين على مهاجمة الإسلام طيلة قرنين تقريبا، وما فتئوا يحاولون تعليم المسلمين كيفية فهم دينهم الإسلامي تحت الذَّريعة القائلة إنه نظراً لأن حضارة الغربيين تصنع محاقن طبّيّة أفضل، فإنهم (أي الغربيين) في وضع أفضل لفهم ما قاله القرآن الكريم وما لم يقله، والبتّ في كون القرآن كلام الله أو أنه خليط من أقوال الأنبياء السابقين كما يزعم كثير من المهتمين بالإسلاميات.

وعلى المسلمين قبل كل شيء تقديم ردّ إسلامي على التحديات التي يضعها العالم الحديث أمام الدين في حد ذاته، وأمام الوحي الإسلامي بصورة خاصة. ومن هنا فإن المهمة بالطبع يجب ألا تُلقى على كاهل الشاب المسلم الذي قد لا يكون عارفاً بتراثه هو بالذات، بل يجب أن تُسند المسؤولية إلى العلماء الناضجين في العالم الإسلامي الذين يتعين عليهم تقديم الدّفاع الفكري عن الدين ومناحيه الروحية التي يستطيع المسلمون الأصغر سناً أن يفيدوا ويتعلموا منها. ولحسن الحظّ، فقد تم تقديم طروحات عديدة كهذه خلال العقود القليلة الماضية، وما يحتاج الشاب المسلم إلى القيام به هو الاطلاع على هذه الكتابات، والاطلاع من خلالها على المحتويات الكامنة في صميم دينه. وسيكون في مقدوره عن طريقها تفنيد الانتقادات التي كثيراً ما توجَّه ضد الإسلام، ابتداء من إنكار صحة القرآن والتهجم على كثير من نواحي حياة النبي محمد ﷺ، أو العديد من عناصر الأخلاقيات الإسلامية، وانتهاء بالآراء المحرّفة الواردة في الفصول الأخيرة من تاريخ الإسلام.

وينبغي أن يكون هناك ردّ إسلامي على كل الانتقادات التي وجّهت ضد الدين، كما أن على المرء، كما سبق ذكره، أن يعتمد على التعاليم الإسلامية الموثوقة الأصيلة من أجل الحصول على الإجابات الضرورية في هذه المهمة. وبُغية إنجاز

هذه المهمة فإنه لا بد من عرض الإسلام بلغة عصرية يمكن أن يفهمها أولئك الذين لم تتح لهم سنوات طويلة للتدرب على الإحاطة بالعلوم الإسلامية التقليدية، حتى وإنْ اتفق أن كانت لغتهم الأم هي العربية أم الفارسية أم التركية أم إحدى اللغات الإسلامية الأخرى. ويتحتم أن يتم عرض الإسلام بلغة معاصرة، وقد تم هذا لحسن الطالع أيضاً بالفعل وإلى حدّ ما. وقد قمنا نحن بذلك في الجزء الأول من هذا الكتاب وفي أماكن أخرى منه، وينبغي السير قدماً في ذلك. بينما يجب على الشباب المسلمين أن يتعلموا ما يقع في صميم دينهم، وأن يعرفوا الأسباب التي مكّنت الإسلام من المحافظة على أسلوب حياة خاص، وإنقاذ الإنسانية حتى بعد انقضاء حوالي ألف وأربعمائة عام على ظهوره. وينبغي ألا يتعرفوا فقط على الانتقادات التي وجهتها جهات عديدة ضد الإسلام، ولا سيما من جانب الغرب خلال القرون القليلة الأخيرة، بل أن يتعرفوا أيضاً على الأبعاد الداخلية لدينهم بالذات الذي وفّر الإجابات عن أعمق الأسئلة الفلسفية والوجودية التي تواجه الأمة.

كما يقتضي أن يبنى الرد على التحديات التي توجه للإسلام على تعاليم الإسلام الأكثر عمومية وشمولية، وتجنّب الطائفية الضيقة والمعارضة داخل العالم الإسلامي نفسه، مع ترك الخلافات الطائفية أو اللاهوتية أو القانونية للفقهاء أو اللاهوتيين وعلماء الدين الذين يتمتعون بدرجة كافية من العلم للقيام بمناظرات من هذا القبيل. ولا جدال في أنه حتى في حالتهم، فقد حان الوقت لهم من أجل أن يتبنّوا النظرة الأوسع للدين الإسلامي الحنيف، القائمة على الشهادتين، إضافة إلى شمولية التعاليم النابعة من القرآن والحديث النّبوي وتجنّب الاحتراب الطائفي.

ومهما كان الحال الذي يتعلق بعلماء الدين الأكبر سناً في العالم الإسلامي، فإن الأهم للشباب هو التمسك برسالة الإسلام الشاملة التي تتضمنها تعاليمه حول الله تعالى والبشر وعالم الطبيعة ومصير الإنسان النهائي والوحي، واتّباع الشريعة وبقية تعاليم الدين الروحية والأخلاقية. ولذلك ينبغي أن تُنحّى المناكفات الطائفية جانباً من جهة، وأن تطرح حقيقة الإسلام من جهة أخرى بلغة معاصرة، لغة يتعيّن

عندها على الشباب ألا يتعلموها وحسب، بل أن يملكوا زمامها أيضاً بدرجة تكفي لدحض الانتقادات التي توجّه ضدهم. ونأمل أن يكون هذا الكتاب ذاته عوناً في إنجاز هذه المهمة.

ثمة مسؤولية كبيرة أخرى تقع على عاتق نخبة المفكرين الإسلاميين، وهي دراسة المسيحية واليهودية والأديان الأخرى من وجهة نظر إسلامية. وقد شهد العالم الإسلامي خلال القرنين الأخيرين ظهور عدد غفير من الدارسين الغربيين وبعض فطاحل العلماء الذين ليس لديهم أحكام متحاملة مقررة مسبقا، بل إن البعض منهم كان متعاطفاً مع القضية الإسلامية؛ غير أنه ظهر آخرون كثيرون كانت لديهم أفكار متصوّرة سلفاً عن الإسلام، وكثيراً ما كانت تعارضه معارضة مريرة؛ لقد درس هؤلاء الإسلام وشوّهوه، وذلك تحديداً بسبب وجهة النظر المشوّهة التي انطلقوا منها. غير أنه لم تكن هناك دراسات عديدة جادة للديانات الأخرى من وجهة نظر إسلامية، مصوغة بلغة معاصرة بالصورة التي درس أسلافنا فيها الأديان الأخرى قبل ألف سنة. وفي الحالات التي بدأت فيها هذه الدراسات المعاصرة بالفعل فإنها، بالرَغم من أنها مازالت محدودة، عادت ببعض الثمار. ومن المهم للشباب الاطلاع على هذه الدراسات ومواصلة السير في هذا النهج الدراسي، وأن يتمكنوا من تكوين منظور عن المسيحية واليهودية والأديان الأخرى بحيث لا يكون هذا المنظور قائماً على مجرد معارضة بعض المصابين بضيق في آفاق تفكيرهم، بل قائماً على شمولية الفهم القرآني للدين. وتكشف أية دراسة، حتى لو كانت عابرة متعجلة للقرآن، عن أنه يؤكد المرة تلو المرة على شمولية الدين، وعلى أن الدين قد أُرسل للبشرية جمعاء.

ويجب أن يعرف الشباب عن شهامة المسلمين وسماحتهم طيلة معظم عصور تاريخهم تجاه الأقليات الدينية التي تعيش بين ظهرانيهم. ويتعين على المسلمين، لا سيما الشباب منهم الذين يذهبون إلى الغرب، أن يعرفوا الفرق بين قوى الحداثة التي تعارض كل أنواع الدين بما فيها ما تبقى من المسيحية التقليدية واليهودية في الغرب من جانب، وتلك الأديان التي إذا أُحسن فهمها، فإن بإمكانها من جانب

آخر أن تتحالف مع الإسلام ضد قوى المادّيّة والعلمانية التي تحاول تدمير الأديان، أو في أحسن الأحوال تحويلها إلى شأن شخصي بحت، وإبعادها عن مسرح الحياة العامة.

ومن الأهمية بمكان كبير أن ينهض الشباب المسلمون ليتعلموا المزيد عن تراثهم الفكري الخاص الذي يشمل جميع فروع المعرفة الإسلامية، ابتداء من الفقه ومبادئه وأصوله وانتهاء باللاهوت والفلسفة والعلوم الروحية المتعلقة بالتصوف، ناهيك عن المواضيع الأساسية التي تشمل تفسير القرآن ودراسة الحديث. ولا مماراة في أنه يستحيل على الشاب المسلم أو الشابة المسلمة إتقان جميع هذه المواضيع، لكن من غير المستحيل الحصول على معرفة أوّلية بهذا التراث الفكري لتفادي الإحساس بالدونيّة في مواجهة الاندفاعة القوية للتحدي الغربي الذي يتمثّل أكثر ما يتمثّل في ميدان المعرفة؛ ولذلك فإنه تحدٍّ فكري، إن لم يكن بالمعنى الأصيل الحقيقي للفكر، فهو على الأقل بالمعنى العقلاني، ذلك المعنى الذي يتناول ثمار نشاطات العقل. وإننا نكرر الأمل بأن يقدّم هذا الكتاب بعض العون في اكتساب معرفة من هذا القبيل.

هذا وعلى الشاب المسلم أن يتعلم ما يكفي عن تراثه الفكري الخاص به لكي يتمكن من أن يستمد منه رد‌وداً على التحديات الحديثة وما بعد الحديثة، مثل العدمية والوجودية اللاأدرية أو الإلحادية، والماركسية المادية، وتحويل العالم الروحي والحقيقة الروحية إلى نوع أو فرع من علم النفس، كما نلاحظ في العديد من المدارس والمذاهب المختلفة لهذا العلم، وذلك إلى جانب التحديات التي يطرحها العلم الحديث، وكذلك بالطبع الأزمة البيئية التي تهدد الوجود الإنساني نفسه. أضف إلى ذلك ضرورة الخروج بردّ إسلامي حقيقي على هذه التحديات بطريقة تمكن الشاب المسلم أو الشابة المسلمة من تطبيق معرفته على مواقف حقيقية ملموسة في الحياة الخاصة والاجتماعية عندما تطرأ تلك المواقف، بأساليب كثيراً ما تكون غير متوقعة. وكثيراً ما يحدث أن الشاب المسلم عندما يأتي إلى الغرب، حتى وإن انحدر من أسرة متدينة وتمكن من أن يتعلم شعائر دينه

وبعض آيات من القرآن واتصف بالصلاح والتقوى، فإنه يكون قد فاته تعلّم تراثه الفكري بصورة تمكّنه من الاستعانة بهذا التراث في المواقف الجديدة التي يواجهها من جميع النواحي والجهات داخل العالم الحديث. ولا يَصْدق ذلك على الذين يعيشون في الغرب وحسب، بل ينطبق حتى على الذين يعيشون في الأوساط المحدّثة في العالم الإسلامي.

ويمكن القول هنا بأن السبيل الوحيد لتقديم ردّ إسلامي على العالم الحديث باسم الشباب المسلم هو التمكن أولاً، وقبل كل شيء، من الدفاع عن دين الإسلام ضد التفسيرات والتأويلات المحرّفة القادمة من الخارج، وذلك بالاعتماد على أكثر الأمور أصالة وأهمية بالنسبة للدين، وتجنّب مزالق المعارضة المذهبية التي كانت مفهومة تماماً في مواقف أخرى، لكنها لا تعمل الآن إلا على تقليص الطاقات الروحية للمجتمع الإسلامي، لا سيما عندما يقف بمواجهته العالم الحديث. وثانياً، ينبغي أن يكون الشاب المسلم قادراً على الاستعانة بالتراث الفكري الإسلامي لتقديم ردود على التحديات التي تطرحها مختلف النظريات والممارسات الفلسفية والعلمية النابعة من العالم الحديث. وأخيراً، وهو الأهمّ بالنسبة للشباب المسلم، أن يكون قادراً على التمييز بين الحداثة وما تبقى من التقاليد والموروثات الدينية الأصيلة للغرب، والتي تشترك مع الإسلام في نواحٍ أكثر من النواحي التي تشترك فيها مع العلمانية التي وإن كانت قد نشأت في الغرب، إلا أن جذورها غير مرتبطة إطلاقًا بالمنظورات الدينية والمنظورات المقدسة الخاصة بالأديان السماوية الأخرى.

٢ـ عندما يتحول المرء إلى النواحي الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في الحياة، فإن أكثر النقاط جدارة بالملاحظة بادىء ذي بدء هي عجز غالبية الشباب المسلم عن التمييز بين التعاليم الإسلامية الأصيلة التي أدمجت إلى حد بعيد في البُنَى الاجتماعية في ذلك الجزء من العالم الإسلامي الذي نشأوا فيه، وبين التقاليد والعادات المحلية التي تحيط هي الأخرى بحياتهم. وكثيراً ما يحدث أنهم عندما يلتقون مع مسلمين آخرين من أجزاء أخرى من العالم، ينطلق في بادئ الأمر كثيرٌ

من النقاش حول أي منهم هو الذي يمارس أو يتبع القواعد والمعايير الإسلامية الأصيلة. وفي الواقع أنهم جميعاً مارسوا هذه القواعد والمعايير، لكن ضمن أطر اجتماعية وثقافية مختلفة تجلت فيها تعاليم الإسلام عبر التاريخ. كما أن العديد من الهجمات التي شنّها الحداثيّون في الغرب ضد المؤسسات الإسلامية الاجتماعية هي في الواقع هجمات ضد جميع المؤسسات التقليدية غير الحديثة التي يقرنونها بالإسلام تحديداً، والتي لا تقتصر على المسلمين، إذ يشارك فيها أيضاً غير المسلمين ممن يعيشون داخل المجتمعات الإسلامية وفي أماكن أخرى.

ومن الأمثلة على الموضوع الذي نحن بصدده قضية تغطية شعر المرأة. هذه ممارسة إسلامية بالطبع، لكنها أيضاً ممارسة اجتماعية يمكن ملاحظتها بين المسيحيين واليهود في الشرق إلى جانب وجودها بين المسلمين. ومن المهم أن نميّز في هذه الحالة بالذات ونقول بوضوح: إن هذه الممارسة تقوم على كل من السنّة في الإسلام وعلى الممارسة الاجتماعية معاً. وفي الوقت ذاته، هناك مظاهر معينة أخرى للعلاقة الاجتماعية بين الجنسين لا يرد ذكرها بوضوح في القرآن أو الحديث، لكنها كانت ممارسات اجتماعية لم تقتصر على وجودها بين المسلمين، بل وجدت أيضاً بين أتباع أديان أخرى كالمسيحية التي وجدت في مجتمعات غرب آسيا وشمال إفريقيا قبل حلول العصر الحديث.

وعلى الشباب المسلم تقويم المؤسسات الاجتماعية الإسلامية داخل العالم الإسلامي تقويماً إسلامياً، وليس بناء على الانتقادات الحديثة لهذه المؤسسات، لأن غالبية هذه الانتقادات تقوم على افتراضات معينة تتعلق بالطبيعة الإنسانية والغاية النهائية للبشر، وهي افتراضات متهافتة في الواقع، ومعارضة صراحة لتعاليم الإسلام. وينبغي عدم تقبل الهجمات الحداثية ضد البنية الأسرية التقليدية، والعلاقة بين الجنسين، والصلة بين الأجيال المختلفة، وما شابه ذلك في العالم الإسلامي، بإذعان ينمّ عن إحساس بالدونية من جانب الشباب المسلم كما لو أنها كانت حقائق ثابتة، أو معايير قائمة على أساس علمي للحكم. وعلى العكس من ذلك، فإن الأساليب ومعايير الحكم التي تأتي من الغرب تتغير كل

بضعة عقود. والواقع أنه يتعين النظر إلى هذه الانتقادات على أنها صادرة من نظرة إلى العالم غريبة كل الغرابة عن نظرة الإسلام، ومن مجتمع هو نفسه آخذ في التغيّر السريع ومعرض لخطر الانحلال.

ومن الأمثلة والحالات التي تأتي في صميم الموضوع دور المرأة في المجتمع الإسلامي؛ حيث يعمد كل غربيّ تقريباً يريد النيل من الإسلام إلى التهجم على المرأة في المجتمع الإسلامي. بيد أن دور المرأة في الغرب نفسه كان مختلفاً كل الاختلاف قبل مائة سنة، أي في العقد الأخير من القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي، عنه في العقد الأخير من القرن العشرين، وما الذي يضمن للعالم الإسلامي أنه لن يكون للغرب موقف مغاير تماماً في العقد الأخير من القرن القادم؟ وفي كل مرة يحكم النقاد الغربيون على المجتمع الإسلامي، وكذلك على المجتمعات غير الإسلامية استناداً إلى الأساليب الدارجة السائدة في الغرب. ولهذا السبب فإنه يجب عدم حمل هؤلاء النقاد إلى حد بعيد على محمل الجد. ولا بدّ بالطبع من تفهّم وجهات نظرهم، لكنهم يجب ألا يُعتبروا من ذوي المعايير المعصومة عن الخطأ عند تقويمهم المؤسسات الاجتماعية الإسلامية؛ بحيث يشعر المسلم الشاب بتصدع روابطه الاجتماعية والأسرية نتيجة لهذه الانتقادات.

ويمكن تطبيق ذلك على الأخلاقيات الإسلامية. ففي العالم الحديث، بالرغم من أن القيم الأخلاقية أصبحت على درجة كبيرة من الاهتزاز في المجتمع، وأن هناك إهمالاً فاضحاً للمعايير الأخلاقية من قبل العديد من الذين يمسكون بزمام السلطة الحقيقية في الوقت الحالي، فإن هناك نقداً مستمراً يُوجه نحو مختلف مظاهر الأخلاقيات الإسلامية. وعلى الشباب المسلم النظر إلى هذه الانتقادات على أنها قادمة من نظرة أخرى باطلة للإنسان ومجتمعه. وتقوم هذه النظرة الباطلة على الفردانية وعلى النزعة الإنسانية الدنيوية وعلى العقلانية وفصل الإنسان عما هو مقدس، والتمرّد على السلطة، وعلى فقدان الشعور بالتسامي، وعلى تفتت الأسرة، وقياس الحياة بالمقاييس الكمّيّة فقط، ومسخ المجتمع إلى مجرد

مجموعة كميّة من الأفراد المفتتين المشتّتين كما سبق أن أشرنا إلى ذلك في هذا الكتاب. ومن الطبيعي أنه يتعين على الشباب المسلم معارضة التعصب الأعمى داخل مجتمعه، كما يعارضه في أي مجتمع آخر يتفق أن يعيش فيه، سواء كان ذلك في الغرب أم في أي مكان آخر في العالم. غير أن معايير أحكام كهذه ينبغي أن تقوم على الأخلاقيات الإسلامية ذاتها، وليس على ما يتفق أن يكون رائجاً وسائداً في العالم الحديث. والسبب في ذلك تحديداً هو أن ما يمكن أن يكون متّبعاً على نطاق واسع اليوم، سيتحول إلى نَبْذه والتخلي عنه بسرعة شديدة غداً. والواقع أنه يظهر كل بضعة عقود هدفٌ جديد لفئات معينة من الأخلاقيين اللاأدريين، أو الملحدين في العالم الحديث الذين يحتاجون إلى ما يمكن أن يبدو وكأنه «سبب أخلاقي» من أجل البقاء في عالم نَسَوْا فيه الله. غير أن المطلوب عندهم هو «سبب أخلاقي» مفتقر إلى المعايير الموضوعية القائمة على الوحي والقانون الإلهي، والمرتكزة فقط إلى قواعد وعناصر إنسانية تتغير بنفس السرعة التي يتغير بها البشر المنغمسون في دوامة التحوّل الذي يكاد يشبه الفوضى.

وفي ميدان الاقتصاد يجدر بالشباب المسلم أن يتذكر مزايا ربط الاقتصاد بالأخلاق، الأمر الذي فعلته الحضارة الإسلامية باستمرار، وأن يتذكر أيضاً الأخطار الكبيرة التي تمثل في حال الفصل بين الاقتصاد والأخلاق وعندما يصبح الاقتصاد «مجرد علم» يكاد يكون مقطوع الصلة بالبشر، ولا يتعامل إلا مع الكمّ دون أن يحفل أبداً بالمظاهر النوعيّة للحياة. وفي هذا المجال، فإن انتعاش علم الاقتصاد الإسلامي الذي نعم بالاستمرارية إلى حد ما طيلة العقدين الأخيرين، يجب أن يكون معروفاً معرفة جيدة لدى الشباب المسلم، كما أنه أيضاً لا بد في الوقت نفسه من معرفة النقائص والسلبيات المتأتية من عدم تطبيق المعايير الاقتصادية الإسلامية داخل مختلف أنحاء العالم الإسلامي. وليس كل ما يمارس في العالم الإسلامي إسلامياً، ولا سيما في الميدان الاقتصادي؛ حيث لم يعد كثير من الممارسات مستنداً إلى تعاليم الشريعة، وذلك نتيجة للظروف الدولية وتجارب القرون القليلة الأخيرة. ومن المهم تجنّب ربط كل شيء يحدث في الميدان الاقتصادي في العالم الإسلامي بالإسلام، هذا من ناحية، ومن ناحية

أخرى يقتضي الإقلاع عن انتقاد كل شيء يجري في العالم الإسلامي استناداً إلى النظريات الاقتصادية الغربية وباسم المثالية الزائفة التي لا يمكن أن توجد، والتي تجافي الطبيعة الإنسانية في الواقع. أما الأمر الواجب القيام به فهو معرفة التعاليم الشرعية المتصلة بالعلاقة بين النشاطات الاقتصادية والأخلاق، وتطبيق هذه التعاليم كمعايير للنشاط الاقتصادي أينما كان ذلك موجوداً.

ولعل أصعب الميادين من الناحية العملية في الحياة التي يواجهها الشباب المسلم هو ميدان السياسة. ففي العالم الإسلامي - ونكرر القول بأن ذلك ناجم مباشرة عن تدمير غالبية المؤسسات السياسية الإسلامية التقليدية، وتغلغل مختلف القوى المؤثرة مثل القومية وبعض المؤسسات الحكومية القادمة من الغرب والتي لا تتطابق مع تعاليم الشريعة - هناك قدر كبير من التوتّر في المجال السياسي في العديد من بقاع العالم الإسلامي، ولا تتوافر دائماً حرية مناقشة هذه المسألة بصورة مفتوحة في بلدان إسلامية كثيرة. ولذلك فإن الشاب المسلم عندما يأتي إلى الغرب يخامره شعور بالحرية في إمكان مناقشة القضايا السياسية، كما أنه كثيراً ما يتعرض لهجمات من الغربيين الذين ينتقدون غياب الديمقراطية في البلدان الإسلامية، ويعارضون كثيراً مما يجري في العالم الإسلامي على الصعيد السياسي. وفي الوقت ذاته تجرى شتى أنواع التلاعب وراء الكواليس على أيدى حكومات «ديمقراطية» معيّنة بهدف تعظيم المصالح السياسية والاقتصادية للدول الغربية القوية في العالم الإسلامي، دون اهتمام بالمطالب الرامية إلى نشر العقائديات الديمقراطية.

إن هذا الميدان المعقّد ميدان لا يستطيع المرء فيه توفير خطوط إرشادية أو توجيهات بسيطة سهلة حول كيفية الرد، ولا سيما لأن الشباب المسلمين يأتون من بلدان ذات أوضاع سياسية شديدة التباين، وفي غالب الأوضاع والأماكن لا يتم اتّباع وتطبيق المؤسسات والممارسات السياسية الإسلامية. ونكرر القول بأن أهمّ نقطة هنا هي معرفة تعاليم الإسلام التقليدية بالنسبة للسلطة السياسية والحكم وعدم الإغراق في المثاليات والبعد عن الواقعية، كما حدث في حالات كثيرة عندما تم

تدمير ما كان نصف جيّد أو صالح على أمل التوصل على أنقاضه إلى حلّ يبلغ درجة الكمال، وبدلاً عن ذلك انتهى الأمر بإحلال جديد أبعد كثيراً عن الكمال، وأقل انفتاحاً بكثير على القيم النابعة من مؤثرات التقاليد الإسلامية، مكان القديم الذي تم تدميره. ولا شك أن هناك مزايا على مستوى معيّن تتحلى بها المؤسسات السياسية في الغرب وتقوم على فكرة الديمقراطية، وهي مزايا مفقودة في كثير من بقاع العالم الإسلامي حيث تتعاظم المواجهات والتوتّرات السياسية لدرجة أنها تحدث آثاراً سلبية على جميع وجوه الحياة الاجتماعية، ولا يتمتع الناس بالحقوق التي منحتها لهم الشريعة والمؤسسات الإسلامية التقليدية.

ومع ذلك، يجب ألاّ يستسلم الشباب المسلم ببساطة للفكرة القائلة بأن الديمقراطية كما بلورتها المؤسسات السياسية الغربية هي دون موازية المعيار المثالي للحكم في كل مكان، لا سيما على الشكل الذي يتم تناولها به في الغرب. ويجب أن يدرك هؤلاء الشباب أن المشاركة الشعبية في الحكم كانت موجودة دائماً في العالم الإسلامي قبل العصور الحديثة، ولكن من خلال وسائل وطرق أخرى غير مجرد وضع البطاقات الانتخابية في صندوق الاقتراع، وأنه يجب أن يُفسح للعالم الإسلامي مجاله الخاص، ويُعطى حرية الاختيار ليستطيع تطوير مؤسساته السياسية الخاصة به انسجاماً مع مبادئ الإسلام وهيكليات المجتمع الإسلامي، وهي فرصة غير متوافرة في الواقع للبلدان الإسلامية في الوقت الحاضر، وكثيراً ما يكون السبب في عدم توفير هذه الفرصة هو ممارسات ذات الدول التي تطلق سهام انتقاداتها على مؤسسات تلك البلدان الإسلامية.

٣ـ أما فيما يتعلق بالمجال الفنّي بالمعنى العام للكلمة، فإن كثيراً من الشباب المسلمين لسوء الحظ، حتى أثناء عيشهم في داخل العالم الإسلامي الذي فقد الآن قسطاً وافراً من حضارته التقليدية، يفتقرون إلى المعرفة والتجربة المباشرة بروعة الفن الإسلامي التقليدي وتميّزه، ربما باستثناء معرفتهم بعدد قليل من الصروح والمعالم الممثّلة للعمارة الإسلامية، والتي لا تزال موجودة ـ بحمد الله ـ في بقاع عديدة من العالم الإسلامي. وتتمثل الخطوة الأولى بالنسبة للناشئة

الإسلامية في أن تتعرّف على تراثها الفنّيّ بالذات، الذي يقوم على منظومة هرمية من القيم وفلسفة للفن تختلف اختلافاً بيّنا عن تلك الموجودة في الغرب.

وكما سبق أن ذكرنا في هذا الكتاب، فإن أسمى الفنون قدراً في الإسلام هما: فن الخط وفن العمارة، تتلوهما فنون اللباس وصنع الأشياء والأدوات التي تحيط بالإنسان في حياته اليومية، مثل: السّجاد والزرابي وما شابهها، والتي تحدّد لهذا السبب البيئة المباشرة للناس. وإلى جانب هذه الفنون، توجد بطبيعة الحال الفنون غير التشكيلية الممثلة في الشعر الذي يشكل عنصراً أساسياً في الثقافة الإسلامية، والموسيقى والأناشيد على اختلافها، والتي يأتي في مقدمتها بامتياز ترتيل القرآن الذي هو أهم فنّ سامٍ في الإسلام. والأمر الهام الذي تجدر ملاحظته هنا يتمثل قبل كل شيء في أن على الشباب المسلمين تفهم مدى ثراء الموروثات الفنية في الإسلام، وعدم الإحجام عن الرد عندما يسمعون نقد النقاد الحديثين الذين يقولون إن الإسلام لم ينتج أبداً أي فن تشكيلي أو موسيقي ذي أهمية، وكأنه أصبح لزاماً على كل حضارة إنتاج ذات الأنواع من الفن وإخضاع هذه الفنون لنفس الترتيب الهيكلي في الأهمية.

إن بمستطاع الشاب المسلم، ذكراً كان أم أنثى، الذي يعرف ويعي تراثه الفنّيّ وأهميته، أن يقوم بالرد في حالات كهذه، ويقول إنه إذا كان الإسلام لم يبتكر فنّ النحت أو يعطي ذات الأهمية التي أعطاها الغرب للتصوير، فإن الغرب بدوره لم يبلغ ما بلغه الإسلام في التوصل إلى ذات العمق والروعة للشعر الصوفي القائم على حب الله ومعرفته، وهو الشعر الذي يزيّن آداب جميع البلدان الإسلامية تقريباً. علاوة على ذلك، فإنه باستثناء النحت الذي تحظره الشريعة الإسلامية، كما هو الحال في الديانة اليهودية أيضاً، وضمن منظور الفن اللاأيقوني في الإسلام الذي يمنع الصنع أو التصوير المتصل بالتماثيل، فقد أنتج الإسلام أسمى أشكال الفنّ في جميع ألوان الفنّ الممكن تصوّرها من ناحية عملية. وحتى في مجال الرسم بالألوان الذي لا يحظى بمكانة مركزية في الإسلام، فإن المنمنمات الفارسية تليها الهندية والتركية تعد من أعظم الروائع في الفن العالمي.

ويجب أن يبقى الشاب المسلم، لا سيما القادم إلى الغرب، مطّلعاً على التأثير الذي يمارسه الفن الحديث على الروح. ولا يستطيع تقديم رد عن طريق تغيير ذلك الفن، لكن في وسعه أن يكون متنبّهاً بالنسبة لأشكال الفنّ التي يحيط بها نفسه. وبإمكانه دائماً أن يحيط نفسه ضمن نطاق حياته الشخصية بمنتجات من الفنّ الإسلامي التي تجلب له بركة الوحي، وأن يستمع إلى ترتيل القرآن إضافة إلى إنشاد الأعمال الرئيسية في الشعر والموسيقى، وأن يخلق، على الأقل على نطاق أضيق، جواً يمكن أن يتردد فيه صدى فنون الإسلام التقليدية؛ بحيث تحيطه بالدعم وتجعله يستذكر ماضي الحقيقة الروحية للإسلام. ومن شأن رقعة صغيرة من الخط الإسلامي التقليدي، أو تصميم في غرفة يعيش فيها أن تحدث فرقاً كبيراً فيما يتعلق بخلق جوّ إسلامي، بالمقارنة مع وضعه في غرفته تلك قطعة من التصوير الحديث أو الطبيعي تعود إلى القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي من الغرب، وتنتمي إلى نظرة للعالم مختلفة كل الاختلاف. ويصدق ذلك أيضاً على الشعر والموسيقى وجميع الفنون الصوتية المختلفة التي تتغلغل في الروح من خلال الأذن وتتسم بقدر كبير من التآلف مع كيان الإنسان الداخلي. وعلى الشاب المسلم ألاّ يدّخر وسعاً في الإبقاء على صلته الوثيقة مع عالمه الفني الخاص به، سواء بصرياً أم سماعيا، دون الانغلاق والانقطاع بطبيعة الحال عن الفن الغربي الذي يشكل جزءاً من تعليمه، والذي يجب على الشاب المسلم معرفته جيداً إذا حاول تفهّم العالم الغربي.

أما النقد الذي ينبغي على الشاب المسلم الرد عليه في مجال الفن فكثيراً ما يقوم على التوكيد الجازم ـ الذي يقدّمه بعض نقّاد الفن الغربيين الموصومين بالضحالة ـ والقائل إن التصوير الإسلامي بالألوان لا ينبض بالحياة أو يتّسم بما هو طبيعي، وإن جاء هذا النقد الأخير في السنوات الأخيرة بدرجة أقلّ مما كان عليه، لاسيما أن الفن الغربي نفسه لم يعد طبيعياً. وهناك أيضاً النقد القائل بأن الفنّ الإسلامي، على النقيض من الفن الإغريقي، لا يستطيع مضاهاة حركة مجموع الأشكال التي يصورها، أو أن يستعيد الحيّز ثلاثي الأبعاد وغير ذلك من نقد في هذا المجال. والواقع أن هذه الانتقادات عديمة المعنى وغير ذات صلة بالموضوع، لو قُدِّر ـ فقط

ـ للمرء أن يفهم معنى الفنّ الإسلامي. لكن هذه انتقادات كثيراً ما توجه على أي حال.

وهناك نوع آخر من الانتقاد، وهو أن الفن الإسلامي كان راكداً ولم يتغيّر تغيّراً ملحوظاً عبر القرون، وكأن التغيير ذاته فضيلة ومزيّة. وعلى الشباب المسلمين أن يعكسوا الحجة ويواجهوا نقّادهم بالإشارة إلى أهمية هذا الفن، حتى وإن كان لا يتغير باستمرار، لأنه يقدّم عبر العصور حجة لصالحه أكثر بلاغة ـ حتى للسواد غير المتعلم ـ من الفن الغربي دائم التغيّر؛ حتى وإن كان على المرء أن يضرب صفحاً عن محتويات كلا الفنّين موضوع البحث. ويتساءل المرء عن أيهّما أكثر وقعاً في نفس من يمرّ بها: أهي قطعة من الخط النسخي الخالد بالنسبة لشخص بسيط يمشي في سوق القاهرة، أو لوحة فنية حديثة سريالية صنعتها ريشة رسّام من نيويورك أو باريس بالنسبة لشخص يسير في شوارع هاتين المدينتين؟ في رأينا أن الجواب واضح تماماً، وأن لدي الشاب المسلم حجة بالغة القوة يواجه بها نقّاده مدافعاً عن فن وإن كان تقليدياً، إلا أنه قادر على تقديم أسمى وأعلى الحقائق التي تتجاوز الأساليب والأنماط الزمنية المتغيّرة، وتمسّ شغاف قلوب وعقول مختلف طبقات المجتمع الإسلامي. إن هذه الحقائق تتخطى الخصوصيات والأحداث العابرة لكل عصر بأسلوب لا يمكن حتى تصوره في حالة الفن الحديث.

٤ـ وأخيراً، عندما ننتقل إلى طراز الحياة فإنه لا بد من التسليم بأن من أصعب الأمور على أي شاب، سواء كان مسلماً أم من أتباع دين آخر، أن يقاوم الإغراء الشديد الذي يقدمه أسلوب الحياة الجديد للشباب، لأن هذا النمط من الحياة يستهوي على وجه الدقة الجانب العاطفي الشهواني المتمرد في النفس، الذي يكون فيه أسهل كثيراً على المرء أن يستسلم له من أن يستسلم للعناصر السامية للذّات، وهي عناصر يتطلب الاستسلام لها انضباطاً وإرادة، وتنطوي في النهاية على تسليم الأمور لله. ويجب ألا ننسى أن أول واجبات كل مسلم هو العيش حسبما تقتضيه مشيئة الله كما تعبّر عن ذلك بوضوح السّنن الإسلامية، حيث لا يوجد سبيل آخر يسمح للمرء بفعل شيء غير ذلك. وإضافة إلى ما ذكر، فإن المرء

بفعل ذلك لا يقدّم أعظم الخدمات للإسلام وحسب، بل يقدمها أيضاً لنفسه بوصفه كائناً خالداً، كما يقدّمها للإنسانية أيضاً، وينبغي ألا ننسى أن من أهم وظائف الإسلام من الناحية الروحية في هذا العصر المظلم من عصور الإنسانية، مواصلة الاهتمام بالحقيقة الكبرى، وهي وجود الله ومشيئته.

ولذلك، فإن أول خطوة ينبغي اتخاذها هي مقاومة العديد من مظاهر ما يسمى بأسلوب الحياة الحديث، وذلك لبقاء المرء مسلماً حقيقياً. وهنا فإن المشكلة تختلف كثيراً بالطبع بين قضية الشاب المسلم القادم من العالم الإسلامي ذاته بقصد الدراسة في الغرب، أو في بقاع أخرى من العالم مثل اليابان، من ناحية، وقضية المسلم الذي يولد في أسرة إسلامية تعيش في الغرب ولم يكتب له أبداً التلاقي مع الثقافة الإسلامية التقليدية، من ناحية أخرى. وهنا فإن تأثير الحياة الحديثة على هذين الصنفين من الشبيبة المسلمة، وكذلك على الشباب الموجودين ضمن القطاعات المحدَّثة في العالم الإسلامي نفسه، تأثير مختلف، غير أنها توجد في جميع هذه الحالات تحديات صعبة تشمل مختلف نواحي الحياة، ابتداء من طراز اللباس الذي يرتديه المرء، مروراً بالطريقة التي يستخدم المرء بها اللغة، والطريقة التي يتناول فيها المرء طعامه، وانتهاء بنوع الموسيقى التي يستمع لها المرء ونوع التسليات التي يستمتع بها.

إن هذا هو المجال الذي يواجه الشاب المسلم فيه أقوى جزء من موجة الحداثة التي تحاول أن تغمر العالم الإسلامي، وهنا على وجه التحديد، تستطيع الهيبة التي تنبثق عن الشعائر المقدسة والعقل النيّر المتمرّس والروح المنغمسة في الإيمان، أن تصمد أمام الضغوط وتتوافق مع هذا الأسلوب للحياة، ولا سيما بالنسبة لأولئك المسلمين الذين ترعرعوا في الغرب، وكذلك بالنسبة لأولئك الذين يأتون من العالم الإسلامي نفسه وهم ما زالوا صغار السن نوعاً. وبالطبع، فإن أعظم الضغوط للانسجام مع طراز الحياة الجديد تتم أثناء مدّة المراهقة وفي بداية العقد الثالث من العمر، لكنها مع ذلك لا تختفي حتى بالنسبة للأشخاص الذين هم أكبر سنّاً بعض الشيء. لذلك فإن من الأهمية بمكان فهم أهمية ما يسمى

أسلوب الحياة الجديد وجميع مظاهر هذا الأسلوب. وكذلك إذا اضطر المرء إلى اتباع بعض هذه المظاهر، فإن عليه، بناء على هذه المعرفة المكتسبة، أن يحاول جهده تخفيف آثار تلك المظاهر وأن يتجنب ما يمكن تجنبه، وأن يُحلّ محلها أساليب أخرى في الحياة والسلوك مبنية على التسليم لإرادة الله. وعلى المرء أن يتفادى التصرفات التي تقوم على تمرد الفرد ضد الله، وضد ما تبقى من القيم التقليدية للمجتمع. وهو تمرد ينعكس إلى حد بعيد في الأسلوب الذي يعتمده الشاب في حياته، كما نستطيع أن نرى انعكاساته في العنف السائد وتعاطي المخدرات والنشاط الجنسي غير المنضبط وما شابه ذلك.

* * *

وباستطاعة المرء أن يمضي إلى ما لا نهاية في الحديث عن هذه المشكلة بالغة الأهمية حول ردّ الشاب المسلم على العالم الحديث. ومن سوء الحظ فإن هذا الكتاب قد أصبح بالفعل أطول مما هو مخطط له في الأصل، ولم يبق هناك مجال للسير قدماً خطوة واحدة في متابعة هذا الموضوع الهام. أما الذي ينبغي تذكرُه في النهاية، فهو أن الإسلام واقع حيّ، في الوقت الذي لا يزال العالم الحديث ـ أيضًا في اللحظة الراهنة وبالرغم من تفككه من الداخل ـ قوة فعّالة يحسب حسابها على ساحة التاريخ. لذلك فإنه ليس لدى المسلمين إمكانية، سواء كانوا من الشباب أم من الجيل الأكبر سناً، للبقاء كمسلمين، فرادى أو كأعضاء في حضارة عظيمة وأمّةً تنتسب للنبي محمد ﷺ، دون أن يستطيعوا الرد على التحديات التي يفرضها عليهم العالم الحديث. ولا بد لهم من فهم العالم الحديث فهماً عميقاً وذكياً، والرد على تحدّياته ليس بصورة عاطفية، بل على أساس المعرفة الحقيقية لذلك العالم بالاعتماد على معرفة التراث الإسلامي بكل أبعاده في ذروة اكتمالها.

ويكمن في صميم هذا المشروع، الحفاظ على الإيمان؛ أي الإيمان بالله وجبروته ومعرفته بكل شيء ومحبة أولئك الذين يستسلمون له. هذا إضافة إلى الإيمان بكلماته التي هي القرآن الكريم، والتعاليم التي تنطلق من خلال خاتم أنبيائه. ويجب ألا ننسى أبداً أن كلاً من القرآن والحديث، المصدرين المتلازمين

للتراث الإسلامي، يوفران كل الهدى الذي يحتاجه جميع المسلمين ـ صغارهم وكبارهم ـ الآن، أو في المستقبل، وحتى نهاية التاريخ. وعلى كل جيل أن يواصل الإيمان بتعاليمهما وتطبيقهما على المواقف التي تجد الأجيال نفسها فيها، وذلك طبقاً لمشيئة الله ومع اليقين بأنه لا توجد حالة بشرية، و«لا يوجد عالم» لا تنطبق عليه تعاليم الإسلام في أي وقت يظهر فيه الأمر وكأنه على العكس من ذلك. إن صوت الحقيقة يمثل القول الفصل دائماً لأنه من لدن الله، وهو الذي تشمل أسماؤه الحسنى اسم «الحق»، وعلينا دائماً التمثّل بكلمات الحق في الآية القرآنية الكريمة ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ [الإسراء: ٨١].

والحمد لله وبه نستعين

***